الاعتدال في التدين

فكرًا وسلوكًا ومنهجًا

الدكتور محمد مصطفى الزحيلي

الاعتدال في الدين

فكرًا وسلوكًا ومنهجًا

الطبعة الثالثة
1428 ميلادية

الناشر
كلية الدعوة الإسلامية
طرابلس - الجماهيرية العظمى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي رضي لنا الإسلام ديناً، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، المبعوث رحمة للعالمين، والذي تمثل به، وبسيرته، وبسنّته، الدِّينُ الحقُّ المبين.

وبعد: فإن التديُّن مأخوذ من الدِّين، ومن معانيه اللغوية: الشرع والقانون والطريقة والمذهب والملة والعادة والتقليد، منْ دَان به، أو دان بالشيء أي اتخذه ديناً ومذهباً، أي اعتقده، أو اعتاده، ودان بالاسلام ديناً أي تعبَّد به وتَدَيَّن، فالتدين هو الطريقة أو المذهب الذي يسير عليه المرء نظرياً وعملياً، وهو المنهج الذي يتبعه في حياته، وفي علاقته مع غيره، وفي عبادته لربه، وفي خضوعه لله تعالى.

والإسلام هو دين الله تعالى الذي يدعو إلى الاعتدال في جميع جوانب الحياة، أي الاعتدال في التدين .

المؤلف

عقيدة وشريعة، عبادة ونظاماً، سلوكاً وأخلاقاً.

وجاءت النصوص الشرعية في القرآن الكريم والسنة الشريفة تؤكد هذا المعنى العام في طلب الاعتدال في التدين، وهو مايرادف التوسط في الأمور، أو الوسطية في الحياة والسلوك، فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ .

{سورة البقرة 143}

وتأكد هذا المعنى في أحكام فرعية كثيرة، وجزئيات شرعية متعددة، وفي أصول الشرع والدين، وفي قواعده وفروعه، فأمر الله تعالى بالاعتدال في الإنفاق مثلاً، وعدم الإسراف في المال أو التبذير فيه، كما أمر بعدم البخل والشحّ والتقتير، وأثنى على عباد الرحمن المؤمنين الفائزين برضوان الله تعالى وجناته بأنهم:

﴿ ...إذا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ .

{الفرقان 67}

وأرشد القرآن الكريم إلى تحقيق التوازن بين مطالب الدنيا والآخرة، فقال عز وجل:

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَيُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾.

(القصص 77)

وأباح الله للإنسان طيبات الدنيا من الطعام والشراب ، وطلب منه الانتفاع بها، ولكن دون إسراف وتجاوز.... إلى غير ذلك من الامثلة .

ولكن بعض الناس يغلب عليهم فكرياً ونفسياً وسلوكياً - جانب فيميلون اليه ، ويغفلون عن بقية الجوانب، ويظنون -أحياناً- أنهم يحسنون صنعاً فيقعون في الافراط او التفريط ، ويتجهون الى المغالاة والتعصب المذموم او الى التقصير والضياع والتسامح المرفوض ، ليكون ذلك تطرفاً وشذوذاً لايقبله دين الله وشرعه ، مهما كانت البواعث داخلية ام خارجية ، ومن ابليس وجنده أم من أعداء الله وأعوانهم، وقد نبَّه الدين الحنيف الى كل ذلك سلفاً وحذَّر من مختلف العوامل السلبية، ورسم لأبنائه وأتباعه المنهج القويم، المتمثل في الاعتدال والاقتصاد.

لذلك أردت بحث هذا الموضوع، ومعالجة المؤثرات الايجابية والسلبية فيه، لبيان منهج الإسلام في الحياة والكون والإنسان، وأنه دين الاعتدال والوسطية في كل شيء ، وعرضته في ستة مباحث، وهي:

المبحث الأول: المغالاة في التدين.

المبحث الثاني: نتائج المغالاة في الدين.

المبحث الثالث: التفريط في أحكام الدّين.

المبحث الرابع: نتائج التفريط وأخطاره.

المبحث الخامس: الانتماء والالتزام.

المبحث السادس: الاقتصاد في التدين.

والخاتمة: عن أهم نتائج البحث وخلاصته.

ونسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما يعلمنا ، وأن يفقهنا في ديننا ، وأن يرزقنا التوفيق والرشد والسداد ، وأن يأخذ بيدنا إلى مافيه الخير والرضا والتزام جادة الصواب، وهو نعم المولى والنصير والمسؤول.

الدكتور محمد الزحيلي

المبحث الأول

المغالاة في التدين

إن الله أرسل الرسل، وأنزل الكتب والشرائع، لتكون سراجاً للناس في حياتهم، وضياء في أعمالهم، وصراطاً مستقيماً في معاملاتهم، وإيماناً صحيحاً خالساً في عقيدتهم، فتخرجهم من الظلمات إلى النور، وتهديهم للتي هي أقوم، وتدعوهم لما يُحييهم في الدُّنيا والآخرة، بما يتفق مع الفطرة السليمة في النفس الإنْسَانيةِ.

ولكن طريق الإيمان والإسلام، ومنهج الأنبياء والشرائع، تَحُفُّه الغِواية، وتعترضه العقبات، وتقف دونه الحوائل، ويبرز في منعطفاته، أو يختفي في زواياه الشيطانُ، ليدعو أتباعه للضلال، ويفتنهم بمختلف أنواع الفتن، ويستغل فيهم الثغرات وجوانب الضعف البشري، ويفتح أمامهم أصناف المُغْريات، ويُزيِّن لهم أفكار السوء، ويُلَبِّسَ عليهم فطرتهم، ويَحْجُب عنهم رؤية المستقبل، قال الله تعالى عن الشيطان:

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ .

(النساء 120)

ومن الأفكار الملفقة، والوسائل الخبيثة التي يستغلها الشيطان: المغالاة في الدِّين، والتقصير في الأحكام، ويلقي بهذه الشباك أمام المتدين ليصطاده، ويقع فريسة لغوايته، ونبدأ بالمظهر الأول وهو المغالاة.

تعريف المغالاة:

المغالاة أو الغلو : هو الزيادة والمبالغة، والمغالاة في التدين هو التشدُّد والتصلُّب في مجاوزة الحد المطلوب والمقدر شرعاً، ذلك أن الله تعالى أنزل الأديان والشرائع، وحدَّد فيها الوسائل والغايات، وتعبَّد الناس بالوسائل كما تعبَّدهم بالغايات، وبيَّن لهم طريق العبادة ، وكيفية الأداء ، ومنهج السلوك في التعامل والتشريع، ونصت الشريعة أن أفضل وسيلة لعبادة الله تعالى هي الكيفية التي أمر الله تعالى بها، وشَرَعَها لعباده، لتحقيق مصالحهم في الدنيا والآخرة، ولجلب النفع لهم، ودَرْء المفاسد

عنهم، ولتأمين صلاح الفرد والجماعة، وتهذيب النفوس والقلوب، وتقويم الأخلاق والسلوك، فلايصح - أصلاً - أن يُعبد الله تعالى إلا بما يُحبُّ ويرضى، وبما شرع للناس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، في الحديث القُدْسي عن ربّ العالمين :

«منْ عادى لي ولياً فقد آذنْتُه بالحرب، وماتقرَّب إليَّ عَبْدي بشيء أحبَّ مما افترضته عليه» [1] .

فالخروج عن هذه الكيفية انحراف عن الدين، سواء كان عن طريق الزيادة أو النقص، والمغالاة في التدين حياد عن جادة الصواب، ومجاوزة للحد الذي قدَّره الشارع الحكيم.

بواعث المغالاة في التدين :

إن بواعث الغلو في التدين متعددة، وتتصل بخفايا النفوس، ونذكر منها:

---

(1) هذا طرف من حديث صحيح رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً.

1 - الطمع:

إن الطمع غريزة وفطرة في الإنسان، وإن الاستعجال في الحصول على الرغبات والمكاسب من صفات البشر، قال الله تعالى:

﴿ ... وكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ .

(الإسراء 11)

وقال تعالى:

﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ... ﴾ .

(الأنبياء 37)

وكثيراً مايطمع الإنسان بسرعة للوصول إلى أهدافه الكبرى وغاياته السامية، ومنها الفوز برضوان الله في الدنيا والآخرة، ولكنه يحاول أن يقتصر الطريق السَّوِي لهذا الهدف، ويسرع السَّيْر فيه، فيلجأ إلى الزيادة في أنواع الطاعة والعبادة، ويتسرب إليه الاعتقاد الخاطئ بأن المنهج الأصلي لايكفي، ولا يحقق هدفه ، وأنه يَقْصر به عن اللحاق بركب الإيمان والصلاح والتقوى ، كما أنه يريد أن يسابق غيره، فيُضيفُ من تلقاء

نفسه، ومن هواه وعقله، وسائل جديدة في العبادة لتقرّبه من الغاية، ويتشدد في الأحكام، فيحرم نفسه من بعض المباحات، ويأخذها بالشّدة والحزم في الطاعة، ويفرض عليها المزيد من التكاليف، ويحملها بعض الأعباء، ويزداد الأمر سوءاً بأن يصدُق هواه، ويغترّ بما وصل إليه، وأن طريقه هو المنهج القويم، والسبيل السّديد، والوسيلة الوحيدة والحكيمة لتحصيل ما عند الله تعالى، وأن غيره مقصر، أو دونه في العمل، ويتابع طريق الغواية والغلو بخطوة خطيرة، فيبدأ بالدعوة إلى فكرته، والاقتناع بمنهجه وطريقته، وقد يصدّقه بعضُ الناس، ويسيرون وراءه، ليكوّنوا جماعة متطرفة، وفرقة منشقة، ونحلة جديدة مغالية، ولا يدري هؤلاء أنهم تائهون في صحراء، وضائعون في تيهٍ، وضالون في ظلام، وكلّما تقدموا خطوة إلى الأمام ابتعدوا عن جادة الحق والصواب، وانحرفوا عن مبدأ الرّشاد ، وضلوا شاطىء الأمان، والعياذ بالله، ومَثَلُهم كحاطب لَيْل، يحمل أفعى تلسعه وتنهشه، وهو لايدري، وأن عملهم بالذات طعن بالدّين، وسهم موجه الى الشرع الحكيم بأنه لم يهتد الى طريقتهم التي تصوّروها، وزينها لهم - في الحقيقة - الشيطان والجهل والهوى، كما سنرى.

2 - الذنوب والآثام :

وقد يكون الباعث على المغالاة في التديُّن، والتشدد في الأحكام : الشعور الذاتي بالتقصير، والندم على التفريط في الدين في سالف العهد، والخوف من عواقب الذنوب والأعمال السيئة التي اقترفوها فيما مضى من عمرهم، وما جنته أيديهم من الآثام.

ويكبر في أنفسهم الشعور بالذنب أولاً والندم على أعمالهم ثانياً، ومحاولة الهرب منها والتخلص من جريرتها ثالثاً، والتوبة إلى ربّهم رابعاً، فيؤوب أحدهم إلى رشده، ويَلِجُ إلى حظيرة الشرع الإلهي، ويقصد رحمة الله تعالى، ويطمع في العفو والمغفرة، وهنا يحاول أن يغتسل من ذنوبه وآثامه بأسرع وقت ممكن، ويخطئ الطريق السوي، فيسعى للزيادة في الدين، والتشدد في الأحكام، والتعنت في العبادة، ومجاوزة الحدّ المرسوم في التكليف، ويتجه إلى معاقبة نفسه الأمّارة بالسوء، فيحرِمَها من بعض ملذاتها المباحة، ويسدُّ الطريق أمام ميوله وعواطفه بما هو مسموح به شرعاً، ويكبت غرائزه، ويحرّم الطيبات التي أحلها الله، ويرسم لنفسه سبيلاً شططاً، ليسير في طريق الانحراف - من جديد - وهو لا يدري مداه.

وقد حذَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه البواعث الخفية، والدوافع الخبيثة التي تجثم في مكامن النفس، وتُزَيّن لصاحبها الحسن والقبح، فقال عليه الصلاة والسلام:

«لايُؤمنُ أحدُكم حتى يكونَ هواهُ تَبَعاً لما جئتُ بـه»[1].

وبيَّن الرسول الكريم الدواء الشافي للوقاية من هذه الأمراض سلفاً، والتخلص منها، والتنكب عن سبيلها لاحقاً، فقال صلى الله عليه وسلم:

«إنَّ مِمَّا أخْشَى عليكم شهواتِ الغَيِّ في بُطُونكم وفرُوجكم ومُضلاَّت الهوى»[2]

وقال أيضاً:

«بئس العبدُ عبدٌ هوىً يُضِلُّه»[3].

---

(1) رواه المقدسي وأبو نُعَيم في الأربعين، والطبراني وأبو بكر الأصبهاني، وقال العلامة ابن رجب: «حديث حسن صحيح».

(2) رواه الإمام أحمد عن أبي بَرْزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه.

(3) رواه الترمذي في باب القيامة من كتابه «الجامع الصحيح».

و قـــال :

«فإنَّ مَنْ يَعش بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنَّتي، وسُنَّة الخلفاء الراشدين المَهْدِيِّين، عَضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإيَاكم والمُحْدَثات، فإنَّ كلَّ مُحْدَثَةٍ بدْعـة».

وفي رواية ثانية :

«وإياكم ومُحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ بِدْعـةٍ ضَلالة»[1].

وقال عليه الصلاة والسلام:

«أما إني أصومُ وأُفطر، وأقوم وأرقد، وأتزوَّج النِّساء، فمن رَغِب عن سُنَّتي فليس مني»[2].

وسيأتي مزيد تفصيل لذلك إن شاء الله تعالى.

---

(1) رواه الدارمي وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم عن العِرْباض بن سارية رضي الله عنه

(2) رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

3 - والباعث الثالث للمغالاة في التدين باعث خارجي:

فكثيراً ما يسعى أعداء الله لمحاربة دين الله، وتشويه معالمه، وطمس محاسنه، وتفريق صفوفه عن طريق التوجيه نحو التطرف والتشدد والمغالاة في العقيدة والأحكام، لمعرفتهم أن طريق الغلو مسدود، وأنه يقطع صاحبه في منتصف الطريق، ويؤخره عن اللحاق بركب الإيمان من جهة، ويزرع الفرقة، ويُقسم الأمة، ويُضعف الناس من جهة أخرى.

ويحقق أعداء الله هذا الهدف بطريق عملي بابتداع الوسائل الدخيلة على الدين باسم الدين والطاعة والعبادة، لاصطياد أصحاب النزعة الدينية، وخاصة الشباب ومن عنده حماس ديني، ويرسمون لهم مناهج جديدة، فيها التزمت والإرهاق والمبالغة، ويضيفونها على مناهج العبادة الصحيحة والصراط القويم، وهذا ما يعرف - شرعاً - بالبدعة والابتداع، وكثيراً ما ينشغل الناس ببدعتهم، ويتساهلون بالأحكام الأصلية الصحيحة، أو ينسونها، أو يغفلون عنها، ويهتمون بالدعوة إلى البدعة وتطبيقها والالتزام بها، لتصبح عَلَماً عليهم، وفي ذات